نقاط تقاطع في فكر مالك بن نبي
وفكر بعض مدارس الإصلاح في العالم الإسلامي

الدكتور: بومعالي نذير
جامعة المدية

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾
الأنفال: 53

(وكل كلمة لا تحمل جنين نشاط معين فهي كلمة فارغة، كلمة ميتة)
مالك بن نبي

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا ونبينا خير الخلق أجمعين وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

لقد كان من قدر العالم العربي خاصة والعالم الإسلامي عامة أن خضع ردحا من الزمن تحت وطأة الإستعمار الأوربي البغيض والذي أراد إستعمار الأرض وغصب العرض واستعباد الخلق وسلخهم عن جلدتهم حتى كادوا لا يحسون بالألم ، فما لجرح بميت إيلام كما قال الشاعر، وكاد يحالفه النجاح في مناسبات عديدة وأماكن مديدة من هذا الوطن العربي والإسلامي لولا أن إرادة الله سبقت وسلم أن أنجبت هذه البلاد العربية والبلاد الإسلامية رجالا في المغرب مثلما في المشرق ، فانبروا لتأسيس عمل إصلاحي وفكري لأجل النهوض بهذه الأمة وتحرير الفرد العربي المسلم مما حاق به من ظلم وعبودية من جراء ما سلط عليه من طرف الإستدمار هنا وهناك في الجزائر وفي مصر وليبيا وتونس والمغرب وفلسطين وبلاد الشام ...و كل البلاد العربية والإسلامية، ومحاولة إعادته إلى ثوبه وجلده الذي كاد ينسلخ منه سلخا.

لقد ظل العالم العربي والإسلامي خارج التاريخ ردحا من الزمن ، وفقد شعوره بالألم وكم كان هذا الألم كبيرا.

وقبل ميلاد القرن العشرين سمع من يذكره بمرضه، فلم يلبث أن خرج من سباته العميق ولديه الشعور بهذا الألم، وبهذه الصحوة الخافتة تبدأ بالنسبة للعالم الإسلامي والعربي حقبة تاريخية جديدة يطلق عليها:النهضة أو الصحوة.فليست العبرة بالتسميات بل بالمسميات، وكان على رأس الناهضين والصاحين إن صحت التسمية الإمام محمد عبده والإمام جمال الدين الأفغاني والإمام رشيد رضا والإمام بديع الزمان سعيد النورسي في تركيا...

و قد أثمر عمل وجهد هؤلاء فكانت بداية القرن العشرين بداية مبشرة وفاتحة خير لهذه الأمة فكان أن ظهر جيل آخر ممن يحملون هم إخراج هذه الأمة مما كانت فيه وكان من هؤلاء ولا نزكي على الله أحدا الإمام عبد الحميد بن باديس وتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م في الجزائر، وكان الإمام الشهيد حسن البنا في مصر يؤسس أيضا عملا إصلاحيا دعويا فكريا فكانت جماعة الإخوان المسلمين ، وكان من بين العلماء والمفكرين أيضا الذين ارتبط اسمهم بالإصلاح الفكري وبالهم الحضاري مفكرنا الكبير موضوع هذا الملتقى الكريم الأستاذ مالك بن نبي فرحمة الله على الجميع.

لم يكن مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا بالمعنى المتعارف عليه، بل كان يمثل "شخص الفكرة"، فهو من أهم رواد مدرسة "إسلامية المعرفة" وإصلاح مناهج الفكر[1].

الأستاذ مالك بن نبي يتيم عصره ومنسي زماننا فقد يكون السبب في ذلك أنه لم يؤسس لعمل جماعي ولم يدرب غيره على حمل فكره من بعده مثلما كان الأمر مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلمائها الذين ورّثوا فكرتهم لأجيال تلتهم وكذا الأمر كذلك لجماعة الإخوان المسلمين في مصر وعلمائها الذين قاموا بتأسيس عمل ضخم ولكن رغم ضخامته فهو يسير بسهولة ويسر لأنه يعتمد على المؤسسات وعلى منهج يرثه اللاحق عن السابق ويورثه لمن يأتي بعده،و لكن ومع ذلك فهو المفكر القدير والإصلاحي الرائد[2]،الذي استطاع أن يرسم نقاط تقاطع واضحة بين فكره وبين فكر هاتين المدرستين الإصلاحيتين الدعويتين ألا وهما:

1. جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

2. جماعة الإخوان المسلمين في مصر.

لقد حاولت في مداخلتي هذه وهي تمثل جهد مقل حصر نقاط التقاطع هذه في الآتي:

أولا:من حيث دوافع العمل الإصلاحي

1/**الاستعمار**:

لقد كان لكل منها دافعا قويا لقيامها أو لتأسيس عملها وكان الدافع المشترك تقريبا بينهم جميعا وغيرهم من الإصلاحيين الدافع الاستعماري ، فجمعية العلماء المسلمين الجزائريين تأسست سنة1931م وكان من بين دوافع تأسيسها احتفال المستدمر الفرنسي بمناسبة مرور100 سنة(قرن)على احتلال الجزائر بالإضافة إلى حالة المسخ التي أراد الفرنسي أن يلحقها بالشعب الجزائري المسلم .

و كانت النفوس في مصر مشحونة ومغتاضة من جراء الإعلان عن سقوط الخلافة الإسلامية ذاك الغطاء الذي كان يمد كل الدول الإسلامية بالقوة والعزة ولكن بسقوطها بدأت تتساقط الدول المنظوية تحت لوائها وقسمت بذلك تركة رجل أوربا المريض(الدولة العثمانية)حاملة لواء الخلافة الإسلامية فنذر الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله من إحدى مدن مصر نفسه في سبيل إرجاع هذا المجد والعز الضائع فقام مع ثلة من رفاقه وباستشعارهم معنى الأخوة في الإسلام فكونوا ما بات يعرف بجماعة الإخوان المسلمين سنة 1928م ، والتي كان لها تأثيرها الواضح في بلاد العجم مثلما هو هو بلاد العرب.

وأراد مالك بن نبي رحمه الله أن يخرج من ركود جده كما يقول هو والذي لم يكن يشعر بوجود مشكلة أصلا وأيضا الخروج عن الحيرة التي كان يعيشها أباه ومن هم في مثل سنه فكان هذا دافعا لأن تفكر الأمة في النهضة واليقضة من سباتها والتي كان جيله معاصرا لها فكان هذا الجيل كما يقول الأستاذ مالك بن نبي بين قوة سلبية تدعوه إلى السكون والوداعة فهي تلبي رغبات النفس الميالة إلى السهولة ، وبين قوة إيجابية تحفزه للعمل والكد وتحدي الصعاب والقيام بالواجب في سبيل النهوض بالأمة[3] ، وكان من

أوجب الواجبات وحال الجزائر كما يعرفها الجميع ساعتئذ مناجزة الإستدمار الفرنسي- وبكل الوسائل والطرق الفعالة ، فقد كان يؤمن بالكفاح القلمي الفكري المسلح وأنه لا ينقص في أهميته وفعاليته عن الكفاح المسلح بالمفهوم الكلاسيكي،فقد كان يرى رحمه الله تعالى بأنه لم نصل إلى فهم صحيح للاستعمار بل وقد أخطأنا في فهمه ، فهو لا يرى مقاومته بالسلاح وفقط ، بل وبالفكر أيضا كما سبق وأن ذكرت ، وقد تكون المقاومة الفكرية مع توفر قوة الإرادة أجدى وأنفع في بعض المنازلات ، وأول ما يجب التفكير به قبل منازلة المستعمر بالسلاح هو إثارة القضية في أذهان بني جلدتنا أنفسهم ، فلا يمكن لإنسان يرى أن الاستعمار فتح للبلاد والآخر يراه أمرا محتوما عليه وقدر مقدورلا يمكن لمن كان ذهنه مشبعا بمثل هذه الأفكار الانهزامية والأطروحات المبطنة مناجزة الاستعمار، فهو يرى ضرورة تصحيح هذه الصورة الذهنية قبل البدء بمناجزته ومقاومته فإذا تحقق هذا الشرط فإنه لا أحد يمكنه الوقوف لإفشال المسيرة وإتمامها مرهون بمدى وضوح وصفاء هذه الصورة بذهن المتلقي[4].

2/تصحيح المفاهيم

لقد سادت فوضى كبيرة في المفاهيم والمصطلحات ولف الكثير منها الغموض وفي كل الميادين السياسية والثقافية والدينية...هذه الفوضى التي كان المستفيد الأول منها هو المستعمر وهذا لضرب الجماعة بعضها ببعض،و هي في ذات الوقت نتيجة حتمية لوجوده فهو الذي قام بخلط المصطلحات والمفاهيم وحتى القيم لضمان بقائه مدة أطول.

فكانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بقيادة الإمام عبد الحميد بن باديس تحارب ما دخل على الدين من بدع وترهات الدراويش والصوفية المبتذلة التي ما أنزل الله بها من سلطان والتي كانت ترى بأن الاستعمار الفرنسي قدرنا ولا مفر لنا منه.

وكانت في الوقت ذاته جماعة الإخوان المسلمين في مصر بقيادة الإمام حسن البنا تحاول جاهدة أن تؤسس لفهم شامل للإسلام وأنه دين ودولة ومصحف وسيف وأنه كل لا يتجزأ وأنه لا يقتصر على ميدان دون غيره ردا على من كانوا يقولون بأنه لا سياسة في الإسلام[5].

وكان الأستاذ مالك بن نبي يقول :"إنه ينبغي لنا أولا أن نحدد كلا من المفهومين ـ وكان يقصد الثقافة والسياسة ولكن هذا لا يمنع من تعميم فكرته هذه على كل ما لصقت به شائبة شوهته من مختلف المفاهيم ـ تحديدا علميا مستقلا في ذاته" وهذا يعبر بوضوح على مدى الغموض الذي كان معاشا آنذاك وفوضى المفاهيم في ظل سلطة استعمارية والتي كانت توظف هذه المفاهيم المقلوبة أحيانا والمغلوطة أحيانا أخرى حسب غايات وأهداف تخدمها[6]، وكان يؤكد على تصحيح هذين المفهومين(الثقافة والسياسة) وضبطهما لكونهما مرتبطين ببعضهما البعض فلا وصول عنده إلى التغيير الذي كان ينشده إلا بإصلاح يبدأ على المستوى الثقافي وينتهي إلى الإصلاح السياسي ، فلا يتصور إنسان مستعمر منزوع الحرية أن ينطلق إلى آفاق التغيير والمساهمة في مسيرة العالم وأن تكون له قدم راسخة وفكرة مؤثرة فيمن حوله[7].

3/الطموح وإرادة التمكين للدين

و مضمون هذه النقطة هو طموح كل رواد الحركة الإصلاحية في الوطن العربي والإسلامي آنذاك بمحاولة إرجاع الإسلام والقيم الإسلامية إلى الروح الخاوية لأفراد الأمة الذين إبتعدوا عن روح الإسلام ، كما كانوا يطمحون إلى إرجاع الإسلام إلى مثل ما كان عليه أيام مجده الأول ، فلقد أرادت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أن ترجع الفكرة الإسلامية إلى النبع الصافي أيام النبي صلى الله عليه وسلم بتنقيته مما علق به من شوائب وأدران ، كما كان طموح الإخوان المسلمون في مصر ـ يصل إلى حد تحكيم الإسلام وتمكينه من جديد في تسيير الحياة اليومية للفرد المسلم.

و كان الأستاذ مالك بن نبي طموحا باسمه وباسم شعبه عندما يتكلم عن الموضع الذي سيناله شعبه في المجمع العالمي[8]كما يسميه رحمه الله تعالى، وبالتالي فهو يسأل عن الدور الذي يجب أن تحضى ـ به الشعوب العربية والإسلامية عموما في المساهمة في الحضارة الإنسانية فقد أصبح لزاما على كل شعب أو أمة أن تقدم للإنسانية ما تملك حتى تنال المكانة المرجوة بين شعوب العالم وهذا بمقدار ما يقدمه لها ، قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴾[9]، فكان الطموح هو أن لا يبقى الإسلام كدين صالح للدنيا والآخرة

على هامش الحضارة الإنسانية بل أرادوا له أن يكون الركن الأساس لهذه الحضارة والتي لا قيام لها إلا به ، لا يريدون للإسلام وللمبادئ الإسلامية أن تبقى على هامش التاريخ لا تؤثر فيه ولا تساهم في صناعته ، يقول مالك بن نبي :"هل في أنفسنا كعرب وفي أرواحنا كمسلمين منبع ينبع منه خير للإنسانية؟"، ثم يجيب على هذا السؤال بقوله:"...يجب أن يكون في نشاطنا شيء تعترف به الإنسانية كحاجة من حاجاتها ، شيء يضمن لنا مركزا كريما في المجتمع العالمي"[10].

و كان الدافع النفسي والذاتي هؤلاء المصلحين جميعا هو ما وعوه من كتاب الله عز وجل ومن سنة النبي ﷺ، فكانوا مدفوعين بدافع حب الخير للإنسانية الذي حث عليه الإسلام وهذا سدا لحاجة من حاجات الإنسانية المتعددة وبهذا فقد استطاعوا أن يموقعوا الإسلام كلبنة من لبنات البناء الإنساني ،قال تعالى:﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[11]، وبالتالي فقد زاوج هؤلاء المصلحين بين مؤثرين قويين ، الأول هو الانتماء لحضارة الإسلام والمؤثر لثاني هو الرغبة الشخصية في التطور واللحاق بركب الدول المتقدمة.

ثانيا:من حيث خصائص ومرتكزات العمل الإصلاحي

لابد لكل عمل ذي بال ممنهج ومراد له النجاح من خصائص ومرتكزات تميزه عن غيره ، ولقد كان لأفكار الإصلاحيين والمفكرين أيضا خصائص تميز فكرتهم عن غيرها من الأفكار ، ولكن هذا لا يمنع من وجود نقاط تقاطع أيضا في خصائص العمل الإصلاحي المراد تنفيذه وهذا يرجع بالأساس الأول إلى الخصائص التي تشترك فيها الإنسانية كلها فلا غرابة إن وجدنا دعوات إصلاحية مختلفة تشترك في بعض الخصائص ، ولا يجب أن تكون هناك غرابة البتة إذا ما كانت هذه الحركات الإصلاحية ذات منطلقات ومصبات فكرية واحدة ، وهي منطلقات ومصبات ذات روح إسلامية، وعليه فقد اشتركت فكرة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وفكرة جماعة الإخوان المسلمين ، وفكرة مالك بن نبي في الانطلاق الحضاري والإصلاحي في خصائص ومرتكزات عدة منها:

1/الشمولية:

فلقد كانت فكرة جمعية العلماء المسلمين الإصلاحية فكرة شاملة لمناحي الحياة كلها، فقد عملت في الجانب الاجتماعي وفي الجانب الثقافي وفي الجانب السياسي، وكذلك جماعة الإخوان المسلمين فقد كانت فكرتها قائمة على الشمولية وعدم التفريط في أي ناحية من نواحي العمل الممكن خوضه ، فكانت تدعو إلى فهم شامل ومتكامل للإسلام وبأنه عقيدة وعبادة وأخلاق ونظام اجتماعي ودعوة وجهاد وهو دين ودولة، كما كانت ترى وجوب شمولية التربية والتنشئة الاجتماعية للفرد المسلم (تنشئة فكرية وعلمية وروحية إيمانية وأخلاقية سلوكية وحركية دعوية)[12]، كما كانت تدعو إلى شمولية الأهداف بداية من اهتمامها بالفرد مرورا بالأسرة ووصولا إلى تنشئة المجتمع تنشئة صالحة تستطيع من خلاله تحرير أراضي المسلمين فهي تسعى باختصار كما سبق وأن أشرت إلى تحيق أهداف الإسلام شاملة غير منقوصة، وهذا لا يتأتى لها بطبيعة الحال إلا باستخدام كل الوسائل الممكنة والمشروعة فلا تقتصر على إلقاء المواعظ والدروس الحماسية التي تلهب بها الجماهير المتعطشة للإسلام ولا على القوة التي قد تلقى بها في متاهات هي في غنى عنها وقد مس الشمول أيضا عندها حتى المكان فهي تحاول جاهدة أن توصل فكرتها إلى كل شبر من الأرض وأن لا يكون محصورا في جهة منها فقط ، مستأنسة بقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ الأنبياء: ١٠٧ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[13]، وكذا الشمول في الزمان بأن لا يتوقف عملها في وقت من الأوقات، وأخيرا يعني الشمول عندها أيضا شمول الإنسان الذي هو مدار هذه الفكرة والمعول عليه في إنجاحها ، والمراد هو أن تشمل دعوتها كل الناس لقوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾[14].

و قد كانت الشمولية في فكر الأستاذ مالك بن نبي واضحة جلية فلقد تمكن مالك بن نبي رحمه الله من أن يحقق الفهم الشامل لمشكلات العالم الإسلامي مستوحيا ذلك من مرجعية الإسلام والواقع الاستعماري، فكان مشروعه لبنة أساسية في صياغة

المشروع الحضاري الإسلامي، ونحن نرى نتائجه في الصحوة الإسلامية المعاصرة، فهو امتداد تاريخي على مستوى الأفكار في الحاضر[15].

لقد أراد أن يكون شاملا في فكره وفي تناوله لقضايا وهموم الوطن حسب المكان ، فهو يتحدث عن المجتمع العربي والإسلامي بمحاولته لمعالجة المظاهر المرضية ومنها فهو يحاول نقل هذا العالم المتخلف إلى مصاف الدول الصانعة لمجد العالم والوصول بها إلى مستوى المشاركة في المسيرة العالمية، هذا الشمول في المكان الذي جعله يتحدث عن فلسطين بين الفينة والأخرى وعن هموم كل العالم العربي وما كان يعانيه من جهل وتخلف وانتشار الأفكار البالية فيه، لقد كان شموله في عالم الأفكار فهو يتكلم عن الثقافة مثلما يتكلم عن التاريخ وعلم الاجتماع والسياسة، يتكلم عن الشيخ الطاعن في السن وعن الشاب المتحمس المقبل على الدنيا.

2/العالمية

فالأستاذ مالك بن نبي يأتي ضمن قائمة رواد الإصلاح في العالم الإسلامي فقد جاء بأفكار عميقة لأجل النهوض الحضاري من خلال رؤية تنطلق من الإسلام متماشية مع روح العصر والعلم، فتركز جهده الفكري على القضايا الأساسية التي تشغل الإنسان المسلم أينما كان دون الاقتصار على قطر أو إقليم بعينه، لذلك جاءت أفكاره عابرة للحدود، وقافزة فوق حواجز الزمن، وفي إطار كلي بعيدا عن التجزئة والتفتيت،إنها النظرة العالمية في فكر الأستاذ مالك بن نبي.

لقد دأب مالك بن نبي في أفكاره أيضا مؤكدا على ضرورة خروج الفكر الإسلامي في حل مشكلات العالم الإسلامي من الخصوصيات المحلية ومن الذاتية المنغلقة إلى رحابة عالمية الدعوة والحضارة الإسلامية للمساهمة ليس في بناء المجتمع المسلم وحسب بل وفي بناء الحضارة الإنسانية كي يكون لبنة من لبناته ، بل واللبنة الأساس فيها، فكان يرى رحمه الله أن عالمية الإسلام شرطها مقاومة القابلية للاستعمار وتصحيح مسار الحضارة الإنسانية مع وجوب إدراك أن قضية العالم الإسلامي هي قضية بناء حضارة بالأساس[16].

و إذا جئنا إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فها هو الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بشمولية وبعالمية فكره وبفهمه للإسلام ولمعاني الأخوة الإسلامية متمثلا في ذلك قول النبي ﷺ فيما يرويه عنه النعمان بن بشير رضي الله عنه حين قال:قال رسول الله ﷺ "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[17].

إنها وحدة الدين ووحدة اللسان ، والتي يقول عنها الشيخ البشير الإبراهيمي رحمه الله :"الأمة الجزائرية هي قطعة من المجموعة الإسلامية العظمى من جهة الدين وهي ثلة من المجموعة العربية من حيث اللغة التي هي لسان هذا الدين ...فالأمة الإسلامية بهذا الدين وبهذا اللسان وحدة متماسكة الأجزاء يأبى لها الله أن تتفرق وإن كثرت فيها دواعي التفرق ويأبى لها دينها وهو دين التوحيد إلا أن تكون موحدة"[18]، فلا يمكن أن يكون هذا الكلام وطبيعة هذا الاستشهاد إلا من قبيل عالمية هذه المدرسة الإصلاحية الباديسية.

و عند جماعة الإخوان فهي من أهم موجبات ومرتكزات العمل عندهم كون الإسلام دينا عالميا لقوله تعالى:﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[19]، ولعالمية الأمة ، فالأمة الإسلامية واحدة في الأرض جميعا لقوله تعالى:﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾[20]،و لعالمية أهداف الإسلام ، ولعالمية المؤامرة على هذه الأمة ،بالإضافة إلى أن أعباء العمل الإسلامي تفرض العالمية ، فهذه مبررات الأخذ بمبدأ العالمية في عمل حركة الإخوان المسلمين، هنا نجد التقاطع واضح بين فكر هذه الجماعة وفكر الأستاذ مالك بن نبي حسب ما تقدم ذكره.

3/إيثار العمل عن الدعاية والإعلام

لقد كان من خصائص حركة الإخوان المسلمين في مصر إيثار العمل والإنتاج على الدعاية الفارغة المستنزفة لطاقات الأمة الإسلامية وهذا خشية أن تصاب الأعمال

بالرياء ولأجل عدم هدر الطاقات في دعاية مغرضة وإعلام زائف، ولذلك حققت ما حققت وفي ظرف وجيز.

لقد كانت دعوة الإخوان المسلمين رافضة لبعض أساليب وطرق الإصلاح مثلما كان الحال مع مالك بن نبي الذي ثار في وجه بعض هذه الأساليب في الجزائر آنذاك ، وفي ذلك يقول الإمام حسن البنا:"أيها الشباب: يخطئ من يظن أن جماعة الإخوان المسلمين جمعة دراويش قد حصروا أنفسهم في دائرة ضيقة من العبادات الإسلامية ...و لكنهم آمنوا به عقيدة وعبادة ووطنا وجنسية وخلقا ومادة وثقافة وقانونا وسماحة وقوة واعتقدوه نظاما كاملا يفرض نفسه على كل مظاهر الحياة وينظم أمر الدنيا كما ينظم الآخرة"[21].

إن منهج حسن البنا في التربية والإصلاح والذي ابتعد فيه عن الدعاية المغرضة المضيعة للوقت والجهد قد أعطى ثمارًا ضخمة على أرض الواقع، حيث أنشأت الحركة مؤسسات اقتصادية واجتماعية ، وشاركوا في العمل الجهادي في فلسطين وحرب قناة السويس . كما أن تربية حسن البنا تطابقت مع منهج الإسلام وذلك سر نجاحها. وهذا عين ما كان يفكر فيه مالك بن نبي رحمه الله تعالى، ففي إحدى كتاباته يرسم لنا مالك بن نبي صورة لهذه الحالة المرضية، ففي الثلاثينيات من القرن الماضي -عندما كان مالك ما يزال صبيًّا- نجح المستعمرون في تحويل الشحنة الإيمانية إلى منابر كلامية، ويقول مالك واصفا أحد هذه المنابر: إن رجلا جزائريا طلب أن يتكلم وظل يصيح أريد أن أتكلم، وكلما اعتلى شخص آخر المنبر ظل يصيح صاحبنا: أريد أن أتكلم، وأخيرا سمحوا له أن يعتلي المنبر فصعد وفي يده مكنسة وهتف قائلا: أريد أن "أكنس" الاستعمار من الجزائر كما أكنس التراب بهذه المكنسة، ثم هبط من المنبر ووجهه مطمئن باسم كله رضا، لقد قام بدوره في مقاومة الاستعمار بهذا المشهد، وحول الشحنة الإيمانية إلى شحنة كلامية ضاعت في الهواء، ولم يبقَ شيء نقدمه للأوطان في المعارك الحقيقية ولم يخرج الاستعمار إلا بعد أن تعافت الجزائر من هذه الحالة وأيقنت بأن خروج المستدمر الفرنسي يستحيل أن يكون بالمكنسة التي ذكرها صاحبنا، فكان قوله تعالى:﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ

مِن وَالٍ ﴾[22]،و قوله تعالى أيضا:﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾[23] نقطة ارتكاز هامة في منظومته الفكرية[24]،و هو يذكر بذلك بالمثل العربي القائل:"حال رجل لألف رجل أبلغ من مقال ألف رجل لرجل" فليست المشكلة أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية وتأثيرها الاجتماعي[25].

وحتى نعرف موقع مشروع مالك بن نبي من "مشروع" الحركة الإصلاحية لابد من عرض رؤيته لها وتقييمه لحصادها فبالرغم مما أقره مالك بن نبي للحركة الإصلاحية من تجديد للقيم الإسلامية، ومن إنجازات فكرية مهمة إلا أنه يسجل عدم استطاعتها المساس بأصل الداء واقتصارها على الأعراض المرضية فحسب فبقيت في دائرة التشخيص بعيدة عن طرح البدائل فابتعدت في نظره عن البناء والتوجيه ببقائها مدافعة ومبررة لمذاهبها وأرائها مع حشد الأدلة لهذا التبرير أو ذاك وضاع بين هذه التبريرات وتلك الحجج حلم سماه مالك بن نبي حلم الحضارة[26].

لم تكن للحركة الإصلاحية قديما نظرة شاملة لمشاكل العالم الإسلامي، فذهب كل مصلح إلى وصف الوضع الراهن تبعاً لرأيه أو مزاجه أو مهنته وتخصصه. فرأى رجل سياسي كجمال الدين الأفغاني أن المشكلة سياسية تحل بوسائل سياسية، بينما قد رأى رجل دين كالشيخ محمد عبده أن المشكلة لا تحل إلا بإصلاح العقيدة والوعظ...الخ ، على حين أن كل هذا التشخيص لا يتناول في الحقيقة المرض بل يتحدث عن أعراضه.

إن ما ينقص الفرد المسلم ليس منطق الفكرة، ولكن منطق العمل والحركة، وهو لا يفكر ليعمل بل ليقول كلاماً مجرداً ، بل إنه أكثر من ذلك يبغض أولئك الذين يفكرون تفكيراً مؤثراً ويقولون كلاماً منطقياً من شأنه أن يتحول في الحال إلى عمل ونشاط ولكنهم لا يفعلون في الغالب.

4/الإنسان أساس التغيير

فلإنجاح التغيير المنشود يجب أن نحققه أولاً في أنفسنا وإلا فإن الفرد المسلم لن يستطيع إنقاذ نفسه فما بالك بإنقاذ مجتمعه ومن ثم أمته، فالتغيير يقتضي تغيير ما في النفوس أولاً ،لقوله تعالى:﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ

مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾[27]، ولقوله تعالى أيضا: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[28]، فيجب على الفرد المسلم أن يحقق شروطاً ثلاثة هي:

1. أن يعرف نفسه.

2. أن يعرف الآخرين ، وأن لا يتعالى عليهم وأن لا يتجاهلهم.

3. ويجب عليه في الشرط الثالث أن يعرِّف الآخرين بنفسه وبصورة محببة ، صورة يقول عنها الأستاذ مالك بن نبي تلك الصورة التي أجريت عليها كل عمليات التغيير بعد التنقية والتصفية من كل رواسب القابلية للاستعمار والتخلف وأصناف التقهقر.

و في المقابل كانت جماعة الإخوان المسلمين تربي أبناءها والمنتمين إليها على مبدأ:[أعرف ربك وأصلح نفسك وأدعو غيرك][29].

فالفرد هنا عند مالك بن نبي وعند حسن البنا هو الهدف وهو نقطة البدء في التغيير والبناء والحل الوحيد منوط بتكوين الفرد الحامل لرسالة ومستغنيا بفكرة[30]، وعلى هذا الفرد أن يقدم الواجب قبل أن يطالب بالحقوق ،فأداء الواجب هو الكفيل الوحيد بالحصول على الحقوق ، فإذا أردت أن تصلح أمر الدولة أصلح نفسك[31].

خاتمة

يرى مالك بن نبي بأننا قد أدمنا العجز، وحجتنا أن التحدي عظيم ولا نملك أن نواجهه،و الهدف ضخم فلا يمكن أن نحققه والسبب هو أننا في الغالب نصنع لأنفسنا هدفا ضخما، ثم نعتذر عن تقاعسنا لضخامة الهدف، والأصل أن نحدد الأهداف قريبة المنال، ثم نصعد منها إلى ما بعدها، ولكننا رضينا بهذه اللعبة الخبيثة، نضحك بها على أنفسنا ونزعم أن الأهداف أكبر منا ومن إمكاناتنا وتحتاج إلى دفعة نبوية، فلابد من ما يسميه الإخوان في دعوتهم بالمرحلية في العمل الإسلامي وهي التدرج بداية من رسم الأهداف المراد تحقيقها فلا يمكن أن نزرع حقلا كبيرا ببذرة واحدة ، بل يجب أن نسدد ونقارب كما أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم،مع التدرج في خطوات تحقيق هذه الأهداف دون حرق للأشواط ، وهذا تأسيسا لما يسمى بسياسة النفس الطويل، فالحركة تعي جيدا أن أهدافها كثيرة وطريق تحقيقها شاق وطويل فهي

ضد التهور وحرق الأشواط متمثلة في ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم:"إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى"

الهوامش

1)أنظر: د.نصر عارف: مقال "هندسة البناء الحضاري عند مالك بن نبي" مجلة الفكر الإسلامي، نشرة تصدر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ملف العدد :الحضارة ـ ذوالقعدة 1414هـ أفريل1994م.

2)هناك الكثير من المفكرين الإسلاميين من صنفوا مشروع مالك بن نبي ضمن الحركة الإصلاحية كالأستاذ غازي التوبة في كتاب "الفكر الإسلامي المعاصر"، والدكتور أسعد السحمراني في كتابه "مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا" والشيء نفسه فعله بعض المستشرقين كـ"لوي غاردي" مثلا.

3) مالك بن نبي .تأملات.دار الفكر،دمشق ـ سوريا،1985م 1405هـص:16 وما بعدها.

4) مالك بن نبي .الفعالية.محاضرة ألقيت في بيروت، سنة:1959م.

5) مازن فروخ.ثوابت العمل الإسلامي عند الإمام الشهيد حسن البنا.المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر،بيروت ـ لبنان ،ط1، 1406هـ/ 1986م، ص:09.

6) مالك بن نبي .تأملات. مرجع سابق، ص:21 وما بعدها.

7) مالك بن نبي.الظاهرة القرآنية.دار الفكر، دمشق ـ سوريا ، 1985م ، :20.

8) المجمع العالمي: كلمة المجمع تشبيه بالمجمع وهو بناية ضخمة بوسط القاهرة بميدان التحرير، سميت بهذا الاسم لجمعها جل الإدارات والمصالح الحكومية المصرية وقد استعارها مالك بن نبي محاولة منه لتوضيح المعنى.

9) سورة آلـ عمران ،اية:110.

10) مالك بن نبي .تأملات.مرجع سابق، ص:213.

11) سورة آلـ عمران، آية:104.

12) مازن فروخ.ثوابت العمل الإسلامي عند الإمام الشهيد حسن البنا.مرجع سابق،ص:46 وما بعدها.

13) سورة الأنبياء:آية 107.

14) سورة الأعراف: آية 158.
15)طه جابر العلواني.مالك بن نبي وحركة التجديد الحضاري.الشروق الثقافي، ملحق جريدة الشروق العربي،العدد 15،ص:24.
16)أسعد السحمراني. مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا. ، ط2، دار النفائس، بيروت ـ لبنان، 1986 م، ص 136.
17)أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب برقم:4685.
18)من مقال للشيخ البشير الإبراهيمي نشر بجريدة السنة العدد الرابع يوم :6 محرم 1352هـ/ 1933م ،أنظر/ آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ،ج3،ص:107.
19)سورة الأعراف آية: 158.
20)سورة المؤمنون: آية:52.
21)حسن البنا.مجموعة الرسائل.ج2،مكتبة رحاب ، الجزائر،ص:125.
22) سورة الرعد:آية:11.
23)سورة الأنفال،آية:53.
24)جودت سعيد .حتى يغيروا ما بأنفسهم.ط1،المطبعة العربية ـ الجزائر،1990م ،ص:11 وما بعدها.
25)مالك بن نبي .وجهة العالم الإسلامي. ط2 ، دار الفكر، دمشق ـ سوريا ، ص 73
26)محمد أبو القاسم حاج محمد.مناهج التغيير والحركات الإسلامية. ، بحوث ندوة مناهج التغيير في الفكر الإسلامي المعاصر المنعقد في دولة الكويت (من 24 الى 62 يناير 1994م) ص:367.و أيضا: مالك بن بني.وجهة العالم الإسلامي.ترجمة :عبد الصبور شاهين ،دار الفكر، دمشق ـ سوريا ،ص:60 وما بعدها.
27)سورة الرعد ، الآية : 11
28)سورة الأنفال ،الآية:53.
29)مصطفى مشهور.طريق الدعوة.دار،سنة:1399هـ/ 1979م،ص:136 وما بعدها.
30) مازن فروخ.ثوابت العمل الإسلامي عند الإمام الشهيد حسن البنا.مرجع سابق ،ص:21.
31) جودت سعيد.مذهب ابن آدم الأول.ص: 14و ما بعدها.